العلماء الجزائريون بتونس خلال عهد الدايات (1671-1830م)؛ ودورهم في مد جسور التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس

د. فوزية لزغم
جامعة ابن خلدون، الجزائر
lazhist@gmail.com

تاريخ التلقي Submission date	تاريخ القبول Acceptance date	تاريخ النشر Publication date
2020-11-14	2020-11-22	2020-12-27

الملخص:

تدلنا المصادر التاريخية على تواجد العديد من العلماء الجزائريين بتونس خلال عهد الدايات (1671م-1830م)، والذي يوافق بتونس قسما من عهد البايات المراديين (1631-1702)، وقسما من عهد البايات الحسينيين (1705-1956م)، وقد كان تواجد هؤلاء العلماء بتونس مؤقتا في أغلب الأحيان، حيث كانوا ينزلون بها أثناء ترددهم على بلاد المشرق، ولا سيما أثناء رحلاتهم للحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج. وبحكم تجاور الإيالتين فإن العلماء وطلبة العلم الجزائريين كانوا يزورون تونس لطلب العلم، فيتجولون بين أرجائها ويقرأون على علمائها، ويقيمون لأكبر وقت ممكن بالعاصمة تونس والتي كانت من أبرز الحواضر العلمية والثقافية آنذاك. كما كان العلماء الجزائريين يزورون تونس لأسباب أخرى كالتجارة أو لأسباب عائلية، وأيا كانت الأسباب فإنهم كانوا يستغلون فرصة تواجدهم بها ويتصلون بعلمائها ويحضرون حلقات دروسهم ومختلف مجالسهم العلمية، ويتذاكرون ويتناقشون معهم في مختلف المسائل الفقهية واللغوية، ويتبادلون معهم الفتاوى والتآليف والإجازات والتقاريظ، وهكذا كان العلماء الجزائريين يُفِيدون ويَستفيدون بتونس. ونستشف من خلال المصادر المتوفرة بأنَّ تونس لم تكن تفتح للعلماء الجزائريين آفاقا للوظيفة والارتقاء الاجتماعي، فلا نجدهم مثلا يُعينون في المناصب العلمية والدينية العليا كالفتيا والقضاء، ولعل هذا ما يفسر قلة عدد العلماء الجزائريين المقيمين بتونس بشكل دائم.

سأعمل من خلال هذه الدراسة على تسليط الضوء على ثلة من العلماء الجزائريين الذين تواجدوا بتونس خلال الفترة المدروسة، وأتطرق إلى تواصلهم مع نخبها العلمية والدينية، وتَأثُرهم بهم وتَأثِيرهم فيهم، وهذا كله يدخل في إطار التواصل العلمي والثقافي بين الإيالتين العثمانيتين المتجاورتين.

الكلمات المفتاحية: الجزائر العثمانية، جامع الزيتونة، الورثيلاني، أبو راس الناصري، التواصل العلمي.

Abstract:

Historical sources tell us the presence of many Algerian scholars in Tunisia during the era of the Deys (1671 AD-1830 AD), which corresponds to a part of the era of the beys of the Muradites (1631-1702), and part of the reign of the Beys of the Husaynids (1705-1956 AD). The presence of those scholars in Tunisia was mostly temporary, as they used to get there while visiting repeatedly the countries of the East, especially during their trips to the Two Holy Mosques to perform the Hajj duty. By virtue of the contiguity of the two countries, Algerian 'Oulama' and students of knowledge used to visit Tunisia to seek knowledge, wander among its parts, study from its scholars, and reside for the largest possible time in the capital Tunis, which was one of the most prominent scientific and cultural cities at the time. Algerian Oulama also used to visit Tunisia for trade or family reasons, and whatever were the reasons, they used to take advantage of their presence there, contacting its Oulama, attending their seminars and various scientific meetings,

discussing with them various jurisprudential and linguistic issues, and exchanging fatwas, writings, permits and notes with them, and so the Algerian Oulama used to avail and benefit in Tunisia. We guess, from the available sources, that Tunisia did not open up prospects for Algerian Oulama for employment and social advancement, so we do not, for example, find them appointed to higher academic and religious positions such as fatwa and the judiciary, and perhaps this explains the small number of Algerian Oulama permanently residing in Tunisia. In this study I shed light on a group of Algerian Oulama who were in Tunisia during the studied period, and deal with how they communicate with its scientific and religious elites, and the way they affected them and are effected by them. All this falls within the framework of scientific and cultural communication between the two neighboring countries.

Key words: Ottoman Algeria, Zaytuna Mosque, Al-Worthelani, Abu Ras Al-Nasiri, scientific communication.

مقدمة:

كانت للعلماء الجزائريين خلال عهد الدايات (1671-1830م) صلات ثقافية وثيقة بأقرانهم في تونس، وقد تحكمت في حركة تنقل العلماء بين الإيالتين مستوى الحركة العلمية بكل منهما، ونظرا للتفوق الذي عرفته تونس في تلك الفترة، فقد أقبل العلماء الجزائريين على زيارتها أكثر بكثير من إقبال علماء تونس على زيارة الجزائر، إذ لم تكن الجزائر تقدم لهم من الناحية العلمية أكثر مما في بلدهم، سيما وأنَّ جامع الزيتونة كان يعج بالعلماء الذين يلقون دروسا في مختلف العلوم. سأعمل من خلال هذه الدراسة على تسليط الضوء على العلماء الجزائريين الذين دخلوا تونس خلال الفترة المدروسة محاولة الوقوف على أهم الدوافع التي حركتهم لزياتهم، وأهم اتصالاتهم وتحركاتهم بها ولقائهم بعلمائها، وتنقلهم بين مدنها ومؤسساتها العلمية والدينية، وهذا كله يؤدي إلى تأثر وتأثير العلماء الجزائريين في الحياة الثقافية بتونس عموما وفي الحركة العلمية خصوصا.

1/أسباب تواجد العلماء الجزائريين بتونس خلال الفترة الحديثة:

هناك جملة من الأسباب دفعت بالعلماء الجزائريين إلى زيارة تونس أو إلى النزول بها أو الإقامة بها، يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

-النزول بها أثناء التردد على المشرق:

كان الجزائريون يترددون على بلاد المشرق الإسلامي لأسباب مختلفة أهمها التجارة وطلب العلم، وأداء فريضة الحج، وكانوا يمرون بالأراضي التونسية ذهابا وإيابا، ولمَّا كانت القافلة أو ركب الحج يحط الرحال بأي منطقة من أراضيها ينصرف المسافرين أو الحجاج لقضاء حوائجهم وشراء ما يلزمهم، ويستغل العلماء وطلبة العلم الفرصة للقاء علماءها وصلحائها، حسب ما تسمح به مدة توقف الركب أو القافلة، ويتباحثون مع علمائها في مختلف العلمية والدينية واللغوية، وتكفينا رحلة الورثيلاني لأخذ صورة متكاملة عن ذلك. وعند العودة من المشرق قد يتخلَّف بعض العلماء عن القافلة أو الركب، ويقيمون بتونس لمدة أطول تسمح لهم بزيارة جامع الزيتونة وبقية مساجدها ومدارسها، ولقاء علمائها.

- طلب العلم:

أولى البايات المراديين والحسينيين عناية كبيرة بالحياة الدينية والعلمية؛ وهذا ما أدى إلى كثرة المدارس ومختلف المؤسسات الثقافية بتونس، وكثرة الأوقاف التي تنفق على تلك المؤسسات وعلى المعلمين والمتعلمين. وقد كان العلماء الجزائريين يدركون تفوق الحركة العلمية بها عن الحركة العلمية بالجزائر، وقد عبَّر بعضهم صراحة عن إعجابه بعناية البايات الحسينيين بالتعليم، من ذلك ما ذكره الشيخ الحسين الورثيلاني في رحلته بقوله:" إنَّ سلاطين تونس وأمرائها وأصحاب الدولة فيها صرفوا هممهم إلى العلم، وأقاموا منائر عزه، فبنوا المدارس وأوقفوا الأحباس، وأعزوا العلماء، وأغنوا للدرس الجلاس، فأسهموا كُلاًّ على قدر همته واشتغاله، فإذا كل شيء على أصله وفصله ومنواله، فمن لم يصبه منهم كثير، وصل إليه نزر قليل"، وليس هذا فحسب بل نصح طلبة العلم بالدراسة بها بقوله:" فمن تمكن

من تونس ووجد معينا على العلم تعليما وتعلما بأن ساعده الزمان والإقبال فرجع من غير قضاء وطره فذلك محروم"، لاسيما إن وجد من يخشى الله ويتقيه، وكان محققا للعلوم، ومدققا للفهوم، ناصحا للضعفاء من الطلبة فليشد يده عليه من غير عجلة، بل يتوانى حتى تحصل له الملكة القوية في كل العلوم"، ويضيف قائلا:" حاصله تونس نعمة لمن أقبل على الله واشتغل بما يعنيه علما وعملا".

وتحدث الحسين الورثيلاني بشكل مسهب عن بعض الفتن والمفاسد بتونس حتى أنه قال:" ولولا العلم وأهله لصب البلاء على تونس صبا لظهور المعاصي فيها من غير نكير"، وبعض تلك الفتن والمفاسد متعلقة بفقهائها لحسدهم للغريب وإنكار فضله، ولكن ذلك لم يغير رأيه في الحركة العلمية بها، وذلك ما عبر عنه بقوله:" وبالجملة فالعالم العامل أو صادق التوجه من الطلبة منور دائما مقبول عند الخاصة والعامة". ولم يخف الورثيلاني إعجابه بجامع الزيتونة من الجانبين العلمي والديني بقوله:" إنَّ الجامع المذكور قد انتشرت عليه الأنوار، وانبسطت عليه الأضواء والمعارف والعلوم والأذكار، كاد أن يكون جامعا للفنون ومحتويا على العلوم، فما أحسنه من جامع أكرم به الطلبة الباحثين، فشمس أنوار الفهوم فيه مشرقة، وفوائده وعوائده محققة ومدققة، فهو جنة العارفين، وخلوة للمتعبدين الناسكين، ومزارة للراغبين المشتاقين" (الحسين الورثيلاني، 2007، ص763-765).

وأثنى الشيخ محمد أبو راس الناصري المعسكري (ت1239هـ/1823م) هو الآخر عن تونس بقوله:" ثم ذهبت إلى تونس أم البلاد، ومثوى الطارق والتلاد... المصر الذي له في خطة المعمور الناقة والجمل... يقضي منها نفثه العاكف والبادي، والرائح والغادي... واجتمعت بعلمائها وأجلة فقهائها" (أبو راس، 1990. ص 108، 109). ولا شك في أن من أهم الأسباب التي جعلت أبو راس يصف تونس بذلك الوصف هو توفر سبل العلم بها.

إنَّ عناية بايات تونس من المراديين والحسينيين بالعلماء، وإنشاء العديد من المدارس بالعاصمة تونس، وببقية المدن التونسية أدى إلى انتعاش الحركة العلمية بها منذ الربع الأخير من القرن 11هـ/17م، ولهذا فلا نستغرب من ازدياد توافد العلماء الجزائريين عليها وإعجابهم بها، وسيما علماء بايليك الشرق وطلبته الذين كانوا يقصدون تونس لطلب العلم، ويجدون ضالتهم بجامع الزيتونة وبمختلف المساجد والمدارس والزوايا المنتشرة عبر ربوع الأيالة التونسية. ولا بد أن نشير أيضا إلى أنَّ تجاور الإيالتين، وسهولة التنقل بينهما، وتشابه الجو الثقافي بهما، ووجود نفس المذاهب الفقهية بهما كلها أسباب أدت إلى توجه العلماء الجزائريين إلى تونس.

- أسباب تجارية وعائلية:

كانت القوافل التجارية تتردد بين إيالتي الجزائر وتونس خلال العهد العثماني، فكان بعض رجال العلم من التجار الجزائريين يستغلون تلك الفرصة لزيارة مختلف المؤسسات العلمية والدينية بها بتونس، ويتواصلون مع علمائها، كما كان بعض الفقهاء يستغلون الزيارات العائلية التي تقودهم إلى تونس، ويتواصلون مع علمائهم، وذلك لاستقرار بعض العائلات الجزائرية بتونس.

ونستشف من خلال المصادر المتوفرة أنَّ بايات تونس لم يكونوا يعينون العلماء الجزائريين في المناصب الدينية والعلمية العليا كما كان يفعل بعض سلاطين المغرب الأقصى سيما السلاطين السعديين، ومع ذلك فقد أكرم بعض البايات بعض العلماء الجزائريين، وأظهروا لهم الكثير من التقدير والاحترام، وينبغي أن نشير إلى أنّ العلاقات الودية التي ربطت بعض فقهاء أسرة أولاد سيدي ناجي ببلدة الخنقة (بضواحي بسكرة) ببعض بايات الأسرة الحسينية، تعود إلى إقامة علي باشا بن حسين باي بن علي باي بزاوية الخنقة لفترة من الزمن حينما جاء رفقة بعض أفراد عائلته إلى الجزائر فارين من بطش ابن عمهم علي باشا لا إلى كونهم علماء جزائريين فقط.

2/علماء بونة بتونس:

مكنتنا المصادر من رصد اثنين من علماء بونة (عنابة) بتونس هما: الشيخ أحمد بن قاسم البوني، والشيخ محمد العنابي.

- قراءة الشيخ أحمد بن قاسم البوني بتونس:

الشيخ أبو العباس أحمد بن قاسم البوني (ت1139هـ/1726م) هو أحد أعلام الجزائر العثمانية، وهو ينتمي إلى أسرة اشتهرت بالعلم والصلاح ببونة، وأنجبت عددا من العلماء. أخذ العلم عن علماء الجزائر، ثم رحل إلى المشرق، فكان متواجدا بالحجاز ومصر في سنة 1092هـ/ 1681م (فوزية لزغم، 2009، ص 89)، حيث استقر بالقاهرة لفترة من

الزمن، ولازم بها أعلاما وأخذ عنهم ثم عاد إلى بونة وتصدى للتدريس بها، وحظي بشهرة كبيرة جعلت المدينة قبلة لطلاب العلم في أيامه.

ذكر الشيخ أحمد البوني في ثبته ثلاثة عشر شيخا من الشيوخ الذين تتلمذ عليهم، اثنين منهم من تونس، أولهما هو الشيخ الشريف سعيد الطرابلسي التونسي(ت 1112هـ/1701م)، وصفه البوني (مخطوط، ص5) في ثبته ب" الشيخ الإمام علم الأعلام، صاحب العلوم الغزيرة، والدروس الكثيرة، النزيه العفيف، التقي النقي، الزكي الذكي"، وذكر بأنه كان يحضر له عشرة دروس في اليوم "كلها في غاية الصعوبة"، "الأول في شرح السنوسي على كبراه، والثاني في مختصر الشيخ خليل، والثالث في ألفية المصطلح في الحديث- إلا أنه ليس له ذا تمكن فيها- الرابع والخامس درسان في المعاني والبيان والبديع، أحدهما في الصباح، والآخر عند الظهر لإمام جامع الزيتونة، السادس في التصريح على توضيح ابن هشام، السابع في المنطق، الثامن في الصرف "شرح السعد على تصريف الغزي"، التاسع في جمع الجوامع لابن السبكي بشرح العلامة جلال الدين المحلي، العاشر في الفرائض في نظم التلمسانية بشرح العصنوني" (أحمد البوني، مخطوط، ص 16 ، 17).

وفي حين اعتبرها أحمد البوني عشرة دروس على أساس الكتب المُدرَّسة، اعتبرها حسين خوجة (1975، ص 197، 198) درسين، يدرس في كل درس عدة كتب، حيث ذكر في ترجمة الشيخ سعيد الشريف بأنَّه:" درَّس بجامع الزيتونة درسين كل يوم، فكان يدرس في درس الصباح كبرى السنوسي، وألفية المصطلح، وقطب الدين الشيرازي على الشمسية في المنطق، ومختصر التفتزاني على التلخيص، قراءة تحقيق في جميعها، ويجلس بعد الظهر أيضا لقراءة مختصر الشيخ خليل إلى قرب العصر قراءة تحقيق أيضا".

وثاني أساتذة البوني بتونس هو الشيخ الأستاذ المقرئ ساسي الجبالي التونسي (ت 1100هـ/ 1689م)، وقد وصفه في ثبته ب:" الشيخ الأستاذ العماد... بقية السلف وبركة الخلف، الخاشع المتواضع، الناسك السالك النافع سيدي الحاج ساسي الجبالي ثم التونسي" (أحمد البوني، مخطوط، ص5)، ولكنه لم يقرأ عنه كثيرا، وذلك ما أشار إليه بقوله:" وأما الشيخ سيدي الحاج ساسي الجبالي... فلم أكثر عنه، وإنما قرأت عليه الجزرية الصغرى لصاحب الطيبة ابن الجزري في التجويد، ولامية الإمام ابن مالك في الأفعال" (أحمد البوني، مخطوط، ص17). وقد كان هذا الشيخ مقرئا، و" عالما بالقراءات السبع والعشر، كان يجود عليه بجامع الزيتونة"(حسين خوجة، 1975، ص 189).

وحضور الشيخ أحمد البوني لكل هذه الدروس يدل على أنه استقر بتونس لفترة كافية لتلقي كل تلك العلوم، والأرجح أنّه عرج على مدينة تونس في أثناء رحلته إلى المشرق ذهابا أو إيابا، ولم يسافر إليها في رحلة علمية.

- قراءة الشيخ محمد العنابي بتونس:

سافر الشيخ محمد العنابي إلى تونس في رحلة علمية متحديا ظروفه الصحية؛ حيث كان فاقدا للبصر، وقد ترجم له حسين خوجة ووصفه ب" العالم الفقيه الشيخ أبو عبد الله محمد العنابي الضرير"، ولد بعنابة سنة 1095هـ/1684م، وقرأ القرآن الكريم بالجزائر، ثم انتقل إلى تونس، وفي طريقه مكث في بلد تستور من عمل تونس، وقرأ على الشيخ علي الكندي، وحصَّل عنه الفقه والنحو، ومنها ارتحل إلى مدينة سوسة، واستقر بزاوية الشيخ محمد بن عمران أبو راوي، وقرأ على الشيخ علي بن موسى الأزهري، والشيخ أحمد الريفي، وتمرَّس في العلوم العقلية والنقلية، وقدم إلى مدينة تونس واستكمل على العلامة سيدي محمد زيتونة (حسين خوجة، 1975، ص 266، 267).

يتضح جليا من هذه الترجمة أنَّه سافر إلى تونس لطلب العلم، وليس أدل على ذلك من تنقله في مختلف أرجاءها، والقراءة على عدة مشايخ، إلا أنَّ حسين خوجة لم يبين عما إذا عاد إلى الجزائر أو استقر بشكل نهائي بتونس.

3/علماء بلاد زواوة بتونس:

تشير المصادر إلى وجود بعض علماء بلاد زواوة بتونس، بعضهم ارتحلوا إليها لطلب العلم، وبعضهم نزلوا بها أثناء ترددهم على المشرق.

- استقرار الشيخ محمد بن أحمد الشريف الحسني بتونس:

هو الشيخ الفقيه محمد بن أحمد الشريف الحسني، خصه حسين خوجة بترجمة في كتابه "ذيل بشائر أهل الإيمان"، وذكر بأنه ولد ببلد تاكنات من عمل الجزائر سنة 1063هـ/1652م، غير أني لم أهتد إلى موقع هذه البلدة، ولما بدى لي اسمها أقرب إلى الأمازيغية جعلتها ضمن بلاد زواوة إلى حين أتثبت من موقعها بدقة. حفظ مترجمنا

القرآن الكريم وجوَّده برواية نافع، كما درس الفقه، فقرأ كتاب "مختصـــر خليل" على الشـــيخ أحمد بن علي، وعلى الشيخ عبد الرحمن بن علي، وعلى الشيخ عبد الله بن الموهوب، ثم اترحل إلى تونس سنة 1093هـــ/1682م، وأخذ على علمائها كالشيخ فتاتة، والشيخ أبو الحسن علي الغماد، ثم تصدى للتدريس بجامع الزيتونة "وطالما أفاد وأجاد، وتخرج عليه الكثير من الطلبة"، وقد وصـفه حسـين خوجة (1975، ص. 248، 249) ب:" الشـيخ العالم، العامل الفاضـــل الكامل"، وكان لا يزال مقيما بتونس ويتولى القضـــاء بماطر حينما انتهى حســـين خوجة من كتابه "ذيل بشـــائر"، وذلك في الربع الأول من القرن 12هـــــ، أي أنه عاش بتونس لفترة طويلة خلال عهدي البايات المراديين والبايات الحسينيين، ولا يستبعد أن يكون قد استقر بتونس بشكل نهائي.

- نزول الشيخ الحسين الورثيلاني بتونس وتواصله مع علمائها وصلحائها:

تفيدنا رحلة الشيخ الحسين بن محمد الورثيلاني(ت1193هـ/1779م) كثيرا في رصد تنقلات مؤلفها بتونس، وتواصله مع علمائها وصلحائها، فقد حج الورثيلاني ثلاث مرات، الأولى في سنة 1153هـ/ 1740م، والثانية في سنة 1166هـ/ 1752م، والثالثة في سنة 1179هـ/1765م، وكان عائدا منها في سنة 11181هـ/1767م.

مرَّ الورثيلاني بتونس رفقة ركب الحج الجزائري ذهابا وإيابا، وقد سرد في رحلته الكثير من المعلومات المتعلقة بإقامته بها، ويُفهم من خلال قراءة رحلته أنَّ إقامته بها في رحلاته الأولى والثانية لم تكن طويلة، فهي تبدأ بتوقف ركب الحج، وتنتهي باستئنافه للمسير، مع العلم أنَّ بعض المناطق بتونس لم تكن آمنة، حيث كان الحجاج يتعرضون للعديد من الأخطار، فقد ذكر الورثيلاني مثلا تبادل الرصاص بين الركب وقطاع الطرق بإحدى المناطق (حسين الورثيلاني، 2007، ج1، 154)، وحذر الحجاج من مناطق أخرى بقوله:" توزر وقابس محل الخطفة، بل توزر أعظم فكل من غفل عن حاجة في يده إلا خطفوها فإياك الغفلة فيهما وفي غيرهما"(حسين الورثيلاني، 2007، ج1، 163)، ورغم ذلك فإن الورثيلاني كغيره من العلماء كان يسعى للتواصل مع علماء تونس، وبما أنه من رجال التصوف والاعتقاد في الصلحاء فقد كان يزور أيضا الأحياء والأموات من الأولياء والصالحين.

وهذا الاتصال يؤدي إلى التواصل العلمي والثقافي بين علماء البلدين، بل حتى أثناء سير الأركاب الحجيج لا يخلو الأمر من اتصال بين الفقهاء، ويذكر الورثيلاني أنّه نزل بتوزر -قاعدة بلاد الجريد- في أثناء رجعته من الحجاز سنة 1153هـ" وقد قدم معنا الحجاج من توزر من أكابرها ومن ذوي رئاستها من كان في الركب في ديارهم... أخرجوا موائد كل مائدة تكفي الجم الغفير والعدد الكثير -كثَّرَ الله خيرهم- ووجدت فيها أفاضل من العلماء والصلحاء... ووجدت في تلك الحجة العلامة الفاضل والفهامة الكامل سيدي عبد القادر الفاسي يقرأ في مسجد توزر في التفسير... وكان -رضي الله عنه- حافظا للروايات".

وزار الورثيلاني في الحجة الأولى رفقة طلبته والسيد ابن نوة قاضي المدية "سيدي أحمد الزربي وهو ولي صالح يخبر بالمغيبات كثيرا"، وكان منعزلا في خلوة في بيته مدة أربعين سنة لم يخرج منها -حسب الورثيلاني-وذكر الورثيلاني بشأن اللقاء الذي جمعهم به:" ولما وصلت إليه مع بعض طلبتي أمسكني من حاشية البرنس، وزفرني زفرة عظيمة، وجذبني جذبا قويا، وقطع لي البرنس من جهة صدري، نحو شبر حتى أصاب الروع من ذلك جمع الحاضرين، وأما أنا في نفسي أنتظر عاقبته"، ثم انبسط الزريبي وانشرح معهم ودعا لهم. ولما سئل عمَّا فعله مع الورثيلاني أجابهم بأنَّ الثوب يُعصر حتى يُنقى من الدنس، وقد استأنس الورثيلاني بجوابه، بل استبشر وفرح به، فهو من الفقهاء الذين يجمعون بين علم الظاهر (العلم الشرعي) وعلم الباطن (التصوف). ويبدو أن السيد الزريبي كان يتمتع بمكانة مهمة لدى أهل توزر، فقد وجده الورثيلاني قد توفي في حجته الثالث، وقد بُنيت "عليه روضة عظيمة، وقبره يزار، وقد اجتمعت أهل توزر على تعظيمه ومحبته لاعتقادهم فيه، وأنه ولي من أولياء الله من غير شك". (حسين الورثيلاني، 2007، ج1، ص 158-160).

كما دخل الورثيلاني قفصة في الحجة الأولى وزار فيها الأفاضل "سيما من بلغ درجة التأليف، المشهور علمه وفقهه" الشيخ المنصوري. وزار في توزر في تلك الحجة العالم الكبير ابن شباط الشقراطسي وغيرهم من المؤلفين. وإقامته لم تكن تطول ببعض المدن كقابس التي حط الركب رحاله خارجها في طريق الذهاب:" أقمنا يومين في قابس وزرنا أبي لبابة، وزرنا جميع من فيها من الأحياء والأموات، واجتمعنا مع بعض فضلائها من طلبة العلم وصلحاء البلد كالمدرس سيدي عمر في المدرسة المذكورة". يتواجد ضريح أبي لبابة بالقرب من مدينة قابس، وأبي لبابة هو صحابي،

ولهذا حظي بمكانة روحية كبيرة في المنطقة، واعتنت به العديد من السلطات السياسية المتعاقبة على تونس، من ذلك تأسيس محمد باي المرادي مدرسة ومسجد بإيزائه، وجعل للمدرسة أحباسا، وعين مدرسا بها، ووفر مرتبات للعديد من طلبتها، وهكذا تحول المكان أيضا لوجهة لطلبة العلم، كما قام الباي حمودة باشا الحُسَيني ببناء على قبره، ونظرا لمكانة الضريح الروحية والعلمية كان الكثير من الرحالة العابرين للمنطقة والحجاج عموما والعلماء خصوصا يزورون ضريحه(حسين الورثيلاني، 2007، ج1، ص 160-164).

وبالنسبة للورثيلاني فقد زار ضريح أبي لبابة عدة مرات، وذكر بأنّ:" عليه مدرسة عظيمة، ومسجد كذلك فيه طلبة علم يتعلمون فيها، وفيها إمام فاضل عالم... وهو سيدي عمر إذ هو المدرس فيه"، وكان الورثيلاني قد التقى بهذا المدرس في رحلته الحجازية الأولى، وفي طريقه للحجاز في الحجة الثالثة :" اجتمعت معه (المدرس) في الطلعة، وفي هذه مع صلحاء قابس وفضلائها وعلمائها، وقد اجتمعوا معنا وطلبوا منا البحث في بعض النوازل من مشكلات الفنون، وقوانين العلوم فأسعفتهم على ذلك، بحسب ما فتح لي من الوهب الرباني والمنح الفرداني، فزادهم ذلك حسن ظن واعتقاد، وعجبا من الله حيث لم ينقطع مادة الفتح والوهب اللَّدُنّي، لا سيما لما رأوا بعض المؤلفات لنا فزادهم تحركا لهممهم، وتعاظما لمقاصدهم، غير أنهم استقلوا مدة الإقامة عندهم ليشفوا عليلهم، ويبردوا غليلهم".

وأورد الورثيلاني الكثير من المعلومات المتعلقة بالفقهاء الذين التقاهم بتونس أثناء عودته من حجته الثالثة، فذكر نزوله بالمدرسة المحاذية لقبر الصحابي أبي لبابة -رضي الله عنه-وسرد تفاصيل كثيرة، منها أنه اجتمع بقابس أو بضواحيها "مع جماعة من الفضلاء، وجم من النجباء أولاد الجمني الذين هم في نفزاوة، فاستفادوا منه واستفاد منهم، وأشار إلى مدرسة الشيخ إبراهيم الجمني بجربة بقوله:" ولهم مدرسة في جربة عظيمة... غير أني ما دخلتها، ولكن ناو دخولها -إن شاء الله-". وقد استفاد من بعض علماء قابس الذين ينعتهم بأشياخنا " كالعلامة الفاضل المحقق الكامل سيدي إبراهيم السوسي، ومثله سيدي يحي بن حمزة".

وقد أقام الركب "في قابس نحو اليومين واليوم الثالث ضعنا منه "، وهناك انقسم الركب إلى قسمين، قسم أخذ طريق مدينة تونس وهم سكان قسنطينة ونواحيها، أما القسم الثاني وهم أهل الصحراء فأخذوا طريق توزر ونفطة إلى سيدي عقبة إلى بسكرة (حسين الورثيلاني، 2007، ج2، ص 752-754). رافق الورثيلاني القسم الذي أخذ طريق مدينة تونس، وقد نزل هذا القسم من الركب بمدينة صفاقس على شاطئ البحر، فاتصل الورثيلاني برجال العلم بها:" وفيها مسجد عظيم تجتمع فيه القراء والعلماء للتدريس، وقد باحثت البعض في علم الكلام لأني وجدته مدرسا فيه، فلم يستطع فهم الإشكال فضلا عن الجواب...ثم انتقلت إلى مجلس آخر في الفقه غير أنَّ صاحبه منصف فأقر بالعجز والتقصير... ثم انتقلت إلى مجلس آخر في النحو غير أنه تأدب معي، وهو يقرأ ويسأل ويسمع مني وينقل، إلى أن شاع أمري ذلك اليوم في مدينة صفاقس، فصار الطلبة يخرجون إلى الخيمة يقصدون الاستفادة في العلم والاختبار... ثم اشترينا بعض الكتب منها".

ثم واصل الحجاج مسيرهم إلى مدينة سوسة وقد وصفها الورثيلاني بقوله:" وهي محكمة منضبطة على شاطئ البحر فيها مرسى مثل صفاقس... وأن سوسة محل الصالحين والعلماء العاملين أحياء وأمواتا". وتحدث عن نزولهم بها بقوله:" ثم نزلنا سوسة وهي بلدة طيبة قريبة من حاضرة تونس... وفيها العلماء مثل الفاضل المحقق والعلامة المدقق الشيخ الهادي، وقد سمعت قبل ذلك جواهر لفظه، وفوائد بنات فكره، مرتب القراءة في تعليمه... يده تجول في كل العلوم، وله قوة وتصرف في سائر الفنون". وقد سأل عنه فقيل له لا يخرج، ولكن الورثيلاني لم يستطع معرفة السبب الذي منعه من الخروج له، وكان قد لقيه في حجة سابقة:" وقد اجتمعت معه في تونس لأن علي باشا أميرها اغتاظ عليه، ومن عادته إذا ضاق على أحد من العلماء حبسه في المسجد للتدريس، ثم يجري عليه النفقة وما يستحقه... وقد حبسه في جامع الزيتونة في الواقع، أما في الظاهر فلم يكن عليه آثار السجن"(حسين الورثيلاني، 2007، ج2، ص756-758).

ثم واصل الورثيلاني رفقة الحجيج مسيرهم من سوسة إلى مدينة تونس:" خيمتنا نزلت مع الركب وفيها أصحابنا، وأنا ذهبت إلى الدار التي نزل بها ولدي مع زوجته حين خرجوا من البحر ينتظرون وصولي، فقام الناس في تونس أعني الراغبين في الخير لضيافتنا بالكسكس واللحم -كثر الله خيرهم-بحيث تكرموا علينا غاية الإكرام، وزادوا على المعتاد بشيء كثير حتى عم ركبنا وفضل داخل المدينة وخارجها". ويفهم من كلام الورثيلاني أنه كان محل تقدير العديد من

العلماء والعوام من أهل تونس:" ثم إن أكثر العلماء والصلحاء ومن فيه رائحة خير يأتون بالطعام إلى دارنا، ثم يذهبون بنا إلى بيوتهم قصد نزول البركة في محالهم".

وقد اجتمع الورثيلاني بالكثير من الفقهاء بالحاضرة تونس ذكر بعضهم بقوله:" ومن اجتمعنا معه في بيته الفاضل الكامل المفتي الحافظ الناقل، الفقيه السيد ابن محجوبة، والعلامة الفاضل ولده محبنا سيدي محمد... وممن اجتمعنا معه أيضا الكامل على الإطلاق الأديب بالاتفاق... سيدي حمودة بن عبد العزيز، وقد أكرمنا أيضا... وكان أبوه أيضا شيخنا سيدي محمد بن عبد العزيز وكان من المحققين، وممن اجتمعنا معه من الحنفية ... العالم الفاضل الأديب النحوي اللغوي المحدث سيدي حسن الترجمان". كما ذكر علماء آخرين ممن اجتمع معهم منهم: العالم الفقيه النحوي الأصولي سيدي الكبير الشريف، الفقيه المحدث الأصولي أحمد بن عبد الصادق، العلامة المعقولي صالح الكواشي، والفقيه العدل عبد الله سيدي ناصر القابسي، والعالمان الجليلان سيدي محمد الوسط وسيدي أحمد نجلا شيخنا سيدي عبد الله السوسي... وغيرهم (حسين الورثيلاني، 2007، ج2، ص 761، 762)، ويذكر أنه اجتمع بالكثير من العلماء وأهل الدولة، " وكذا المجتمعون في جامع الزيتونة للإقراء والتدريس فتقصر العبارة عنهم وعن عدهم".

وذكر بعض كبار علماء تونس الذين جمعته بهم صداقة متينة:" وبالجملة ففضل الشيخ الغرياني علما وعملا... وهو فقيه محدث نحوي، تصرفي منطقي، أصولي متكلم، عروضي مفسر، ليس فظا غليظ القلب، وهو رحيم أيضا للأمة المحمدية لاسيما غرباء الطلبة... إنّ الشيخ تضلع من علم الشريعة، وتمكن من علم الحقيقة كما يليق -جعلنا الله من أهل وده-وهو صدوق لنا، والحمد لله على صحبة مثله، ومعرفة نظيره". ومن أصدقائه المقربين أيضا الشيخ عبد الله السوسي، الذي ذكره بقوله:" شيخنا المحقق العلامة المدقق الفقيه الأصولي النحوي... سيدي عبد الله السوسي فكلاهما من فحول الرجال وقطبي الكمال... لا يبغضهما إلا شقي، ولا يحبهما إلا سعيد تقي، وقد تفضل الله علينا بمعرفتهما وصحبتهما"(حسين الورثيلاني، 2007، ج2، ص 766-768).

ولم تقتصر زيارة الورثيلاني على العلماء والصلحاء الأحياء، بل عمل على زيارة قبور المتوفين منهم، وذلك ما أشار إليه بقوله:" إنَّ أولياء الله في تونس كالنجوم الأموات والأحياء، وقد زرنا من يعتد بزيارته من الأموات كالأشياخ محرز من خلف، وسيدي علي زياد، والشيخ المرجاني... وغيرهم من العلماء والصلحاء ممن لا يمكن احصاؤه". وقد أجاز الكثير من أهل تونس إجازات علمية وصوفية، وذلك ما أشار إليه في قوله:" حاصله لا يمكن استقصاء ما فيها من النجباء والفضلاء والصلحاء ممن اجتمعنا معه وأجزنا بالأذكار والعلوم".

ونظرا لأهمية مدينة تونس في المجال العلمي فقد أقام بها الورثيلاني لأزيد من خمسة أشهر، استغلها في بنشر العلم لولا بعض المنغصات :" وقد مكثت فيها نحو خمسة أشهر ونيف، وأنا في تعمير الأوقات بتدريس الفنون، وضبط القواعد من العلوم، فإن تونس قاعدة من قواعد العلم، ومدينة من مدن الفهم، غير أن أهلها ينكرون البراني، بلغ ما بلغ في القرب والتداني"، كما أشار الى التنافس والتحاسد، وقد أطال الحديث عن هذا الجانب، ومع ذلك فهو لا ينكر إيجابيات المدينة:" وبالجملة فإن تونس خيرها عظيم، وحالها كريم...حلوة المذاق، عزيزة الفراق، كثيرة الاشتياق"(حسين الورثيلاني، 2007، ج2، ص770-772).

عزم الورثيلاني على مغادرة تونس ناويا الرجوع إليها للتصدي للتدريس بها، لأن ذلك لا يكلف المُدرِّس:" ولما مكثت في تونس مدة، ثم جئت منها على أحسن الخيرات، وأتم البركات، نعم تركت أهلي هناك أخذا بخاطر من فيها من العلماء والصالحين ممن بالغوا في محبتي واشتياقي في إقامتي ناويا الرجوع إليها والتوطن فيها رغبة في نشر العلم وبثه، لكثرة الآخذين فيها مع عدم الكلفة للطلبة الآخذين، بخلاف وطننا فإنه لابد من كلفة الطلبة والإقامة بمؤنهم وإلا انقطع مادة العلم".

حينما خرج الورثيلاني من مدينة تونس عائدا إلى الجزائر ودعه الكثير فقهائها:" ولما خرجت من تونس ودعني أكثر علمائها، وجم فضلائها وعامة طلبتها، كالفاضل المحقق، والكامل المدقق سيدي محمد الغرياني، ومن لا يحصى عددا إلى سيدي عبد الله الشريف فاجتمعوا هناك، فما أصعبه من فراق"، حتى أن بعض أهل تونس ساروا معه هو ومرافقيه لمسافة بعيدة، ثم عادوا أدراجهم إلى مدينة تونس. وذكر وصولهم معهم إلى سيدي علي الحطاب وهو ليس بعيدا عن مدينة تونس:" فبتنا عنده مع جمع كثير من تونس ومن تبربة، فكثر أنواع الأطعمة وأنواع الطبائخ، بأن ذبح سبعة أكباش وثورا أهل تبربة ومن كان من أصحابنا من أهل تونس ". وما يؤكد رغبته في العودة إلى تونس تركه

لأهله بتونس برفقة صهره الفقيه السيد عبد الله بن رحاب، وعمه السيد عبد العزيز "(حسين الورثيلاني، 2007، ج2، ص 781-785).

تعطينا رحلة الورثيلاني صورة متكاملة عن مدى الاحتكاك الحاصل بين العلماء الجزائريين الحجاج وعلماء تونس، حينما يعبر الركب الجزائري الأراضي التونسية، فقد رأينا كيف كان الورثيلاني يزور العلماء، ويتناقش معهم في المسائل العلمية المختلفة، ويطلع بعضهم على مؤلفاته، ومنح إجازات علمية وصوفية، واشترى كتبا. كما ذكر أنه تصدى للتدريس خلال إقامته بمدينة تونس، ووجدنا يزور الصلحاء الأحياء منهم والأموات لأخذ البركة.

- دراسة الشيخ محمد الصالح بن سليمان الزواوي بتونس:

الشيخ الفقيه النحوي محمد الصالح بن سليمان بن محمد بن محمد بن أبي القاسم العيسوي (ت1242هـ/1827م)، هو أحد علماء بلاد الزواوة الذين درسوا بتونس، وينعت بالرحموني نسبة إلى أولاد رحمون، وهو من شرفاء العش في بلد أمشدالة، وُجِدَ بخطه أنّه قرأ وأُجيز بجامع الزيتونة ، غير أنَّ صاحب " تعريف الخلف" لا يذكر شيوخه، ويبدو أنّه تلقى بها تكوينا مُهما، إلى جانب ما يكون قد أخذ عن علماء الجزائر، وذلك لاشتغاله بالتدريس في جبل بني عيسى بمجرد عودته من تونس، ثم دعوته من طرف الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري للتدريس بجبل جرجرة (أبو القاسم الحفناوي، 2012، ج2، ص517).

4/علماء مدينة الجزائر بتونس:

مكنتنا المصادر من رصد اثنين من كبار علماء من مدينة الجزائر عاصمة الإيالة بتونس خلال الفترة المدروسة، زاروها لأسباب مختلفة.

- الشيخ أحمد بن عمّار بتونس:

يعد العلامة الأديب الشيخ أحمد بن عمّار بن عبد الرحمن (ت بعد 1205هـ) من نَوابغ أدباء الجزائر بعصره، تولى الفتوى المالكية عدة مرات، وتصدّى للتدريس بمدينة الجزائر. وهو أحد العلماء المترددين على المشرق، فقد رحل إليه مرتين على الأقل (أبو القاسم سعد الله، 1998، ج2، ص226)، حيث حج سنة 1166هـ/1752م (حسين الورثيلاني، 2007، ج1، ص341)، وجاور بالحرم المكي، وكان موجودا هناك أيضا في سنة 1172هـ/1758م (عبد الحي الكتاني، 1982، ج1، ص 122)، غير أنَّ المصادر المتوفرة لم تكشف عمّا إذا أقام بمكة منذ سنة 1166 هـ إلى سنة 1172هـ، أم أنه رجع إلى الجزائر، ثم حج من جديد؛ وكل ما يمكننا الجزم به أنه عاد إلى الجزائر بعد هذا التاريخ، وتولّى بها الفتوى على المذهب المالكي سنة 1180هـ/1766م (Devoulx , Année : 1866,pp: 375-376).

ولا شك في أنَّ الشيخ ابن عمَّار كان ينزل بتونس ويتصل بعلمائها خلال تردده على الحرمين الشريفين، ولهذا نجده يعود إليها في سنة 1195هـ/ 1780م بقصد الاستيطان، وكان عندئذ في سن كبير. وكان لا يزال مقيما بها في سنة 1204هـ/1789م، وتشير بعض المصادر إلى تواجده مرة أخرى بالمشرق في سنة 1205هـ/1790م، وهذه الإشارات تدل على أنّه أقام بتونس لحوالي تسع سنوات، شارك خلالها في الحياة العلمية بها، ويرجح أنه تصدى للتدريس كعادة كبار العلماء المدرسين، ومن آثاره بتونس تأليفه لكتاب حول الباي علي باشا (1759-1782م) (أبو القاسم سعد الله، 1998، ج2، ص 226، 229) رابع البايات الحُسينيين، والذي كان على رأس إيالة تونس عند إقامة ابن عمَّار بها.

كما تمكن ابن عمَّار من ربط علاقات متينة بأقرانه بتونس، وتبادل معهم التقاريظ والإجازات العلمية، من ذلك التقريظ النثري الذي كتبه ابن عمَّار في صفر سنة 1196هـ/1781م للكاتب الوزير أبي محمد حمودة بن محمد بن عبد العزيز التونسي (ت 1202هـ) على رسالة له في مسائل من الكلام، ردَّ بها على أسئلة بعض علماء قسنطينة، والتقريظ طويل يضم صفحتين ونصف من القطع الكبير، على طراز بلاغي جدير بالاعتبار، وممَّا ورد فيه قوله:" وقد أطلعني... على الرسالة المُحبَّرة... وضمنها أجوبة عن أسئلة كلامية وردت - كما ذكر أعزه الله- على الحضرة... فنظرتها بعين المنة والإنصاف... فرأيتها قد حازت قصب السبق في مضمار الإجادة وميدان الإصابة، وانتظمت هي ومؤلفها مع شيوخ أهل السنة، ومؤلفاتهم المحررة في تلك العصابة، وشهدت له - أدامه الله وأدام النفع به- برسوخ القدم في المعارف وسعة الاطلاع...". ولابن عمَّار مراجعات أيضا مع الشيخ إسماعيل التميمي في نوازل فقهية جريا فيها مجرى الاستنباط (حمودة بن عبد العزيز، 1970، ج1، ص19)، وقد كان الشيخ حمودة بن محمد من كبار علماء تونس

آنذاك، كما كان كاتبا ووزيرا للباي علي باشا، وقد كلفه في سنة 1186هـ/ 1772م بتدريس أبناءه ومنهم ابنه حمودة باشا، وكان الشيخ إسماعيل التميمي هو الآخر من العلماء البارزين بتونس آنذاك.

ومن آثار الشيخ أحمد بن عمار بتونس إجازته للشيخ إبراهيم بن عبد الله السيالة، الذي جمع ثبتا في أسانيد شيخه بن عمار سمّاه " منتخب الأسانيد في وصل المصنفات والأجزاء والمسانيد "فأجازه به سنة 1204هـ/1789م (عبد الحي الكتاني، 1982، ج1، ص121، 122). والظاهر أنَّ تغير الظروف بتونس اضطرته لمغادرتها والتوجه إلى المشرق، حيث وجد هناك سنة 1205هـ/1790م، والظاهر أيضا أنه ظل مجاورا إلى وفاته، حيث ذكر أبو راس الناصري أن ّه توفي بالحرمين الشريفين (أبو راس، 1990. ص. 49).

- نزول الشيخ محمد بن محمود العنابي بتونس وعلاقته بعلماء أسرة بيرم:

يعتبر الشيخ محمد بن محمود العنابي الحنفي (ت1267هـ/1850م) أحد كبار علماء الجزائر في أواخر العهد العثماني، وهو ينتمي إلى أسرة ابن العنابي، الأسرة العلمية الشهيرة، تولى عدد من أبناءها وظائف دينية عليا، ومنهم هذا العالم الذي تولى الإفتاء والقضاء على المذهب الحنفي لفترة طويلة. ويهمنا في هذه الدراسة تردده على المشرق ونزوله بتونس، حيث قصد بيت الله الحرام في سنة 1236هـ/ 1820م، وأدَّى فريضة الحج، ثم عاد إلى القاهرة وأقام يُدّرس ويُفيد ويستفيد بالجامع الأزهر لمدة تسع سنوات (عبد الحميد بيك، 2011، ص187، 188)، ثم رجع إلى الجزائر، ونزل في طريقه بتونس في أواخر سنة 1244هـ/ 1828م، وأقام بها فترة من الزمن، ثم واصل مسيره إلى الجزائر فكان بها في بداية سنة 1245هـ/ 1829م.

حظي الشيخ محمد بن محمود العنابي بالإكرام والتبجيل والتعظيم من طرف باي تونس عندئذ المشير أحمد باشا باي (1837-1855م)، وتشير بعض الوثائق التونسية إلى أنه يستحق تلك الحظوة التي خصه بها الباي، والعبارة كما وردت في تلك الوثيقة:" فتلقاه أمير الوقت بمزيد من الإجلال، وهو بذلك حري، إذ مقامه في العلم كبير" (أبو القاسم سعد الله، 1977، ص29، 30). كما أحاطه علماء تونس بالتقدير، وأشاد بعلمه العديد منهم، ومدحوه نظما ونثرا، وقد ربط علاقات وردية مع بعضهم، سيما مع فقهاء أسرة بيرم الأسرة العلمية الشهيرة بتونس، وهي أسرة تركية الأصل، حنفية المذهب، دخل جدهم إلى تونس أثناء الفتح العثماني (محمد محفوظ، 1994، ج1، ص 130)، وشهد القرن الثاني عشر (18م) بزوغ شهرتها العلمية، وتوارث عدد من علمائها الوظائف الدينية الحنفية الكبرى، وفي مقدمتها رئاسة الفتوى الحنفية، ومن أبرز علماء هذه الأسرة: شيخ الإسلام محمد بن حسين المعروف ببيرم الأول (ت 1214هـ/ 1800م)، وابنه محمد بيرم الثاني (ت 1247هـ/ 1831م)، وحفيده محمد بيرم الثالث (ت 1259هـ/ 1843م)، وحفيده الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن محمد، المعروف ببيرم الرابع (ت 1278هـ/1861م)، حمل هذا الأخير نفس اسم أبيه وجديه قبله، تولى خطة التدريس، ثم الإفتاء، ثم رئاسة الفتوى الحنفية سنة 1259هـ/ 1843م، بالإضافة إلى توليه إمامة عدة جوامع، وإدارة العديد من المدارس. (أحمد عبد السلام، 1993، ص 325-338).

وهناك عوامل عدة قد تكون ساهمت في تمتين العلاقة بين ابن العنابي وبين فقهاء هذه الأسرة، فكل من أسرة ابن العنابي وأسرة بيرم من أعيان الأسر العلمية، وكليهما أسر تركية الأصل، حنفية المذهب، تقربت من السلطة الحاكمة، وحظيت بمناصب دينية وعلمية رفيعة.

ومن مظاهر التواصل العلمي والثقافي بين الشيخ ابن العنابي وفقهاء أسرة بيرم كتابة الشيخ محمد بيرم الرابع تقريضا نثريا لابن العنابي على كتابه " شرح الدر المختار" في 20 محرم سنة 1245هـ، ذكر فيه أنّ ابن العنابي أطلعه على الشرح، وطلب منه أن يكتب عليه تقريظا:" والتمس مني كتابة تقريظ عليه بعد التأمل فيه على ما هو الرسم بين الإخوان من سالف الزمان..."، وقد أثنى الشيخ بيرم على الكتاب بقوله :" أما بعد فقد أجلت الفكر في بدائع هذا الشرح الشريف، المنعوت بحسن الترتيب والتأليف، فوقفت منه على ساحل البحر المحيط، وخلاصة كل وجيز وبسيط، وتحرير يذعن له من التزم شريعة الإنصاف... طروس سطوره بنفائس الدرر مكللة، ومحكم أحكامه بأدلة الكتاب والسنة معللة، فهو الجامع الكبير، الموصوف بالإحكام والتحرير، نتيجة فكر العلم النحرير... أخينا أبي عبد الله سيدي محمد بن محمود بن محمد بن حسين الحنفي الجزائري، من بيت علم دعائمه أعز وأطول، وأساسه أحكم وأكمل"، وقد ضمن هذا التقريظ قصيدة في عشرة أبيات مطلعها: (أبو القاسم سعد الله، 1977، ص125-127).

أكوكب لاح أم بدر التمام بدا أم لامع الحق في أفق الهدى صعدا

لقد منح الشـــيخ ابن العنابي إجازات لعدد من علماء تونس، منهم الشـــيخ محمد بيرم الرابع الذي أجازه بإجازتين على الأقل، إحداهما إجازة صـوفية مشـافهة بالأحزاب الشـاذلية، والثانية إجازة علمية كتابية، عدّد فيها طرق تلقيه للحديث الشـــريف والفقه، فذكر بأنّه روى "صـــحيح البخاري" بطرق عديدة، ولكن طريق السماع والقراءة إنّما هي على والده محمود (ت 1234هـــ)، وبأنّه سمعه على جده الشيخ محمد بن حسين قاضـــي الجزائر (ت 1203هـــ)، بالإضـــافة إلى قطعة من أول كتاب " فضـــائل القرآن"، ووقعت له منه إجازة تتضـمنه، كما روى صـحيح البخاري أيضـا سـماعا لبعضـه، وإجازة لباقيه عن شـيخه الإمام أبي الحسـن علي بن عبد القادر بن الأمين، ثم قال:" وقد أجزت بهذا، وبكل ما أجازني به مشـائخي، الشـاب الفاضـل اللوذعي الكامل أبا عبد الله محمد بن شـيخ الإسـلام محمد بن شـيخ الإسـلام محمد الشـهير ببيرم-حفظه الله-إجازة عامة بشـرطها المعلوم لأهله..." (أبو القاسم سعد الله، 1977، ص115- 117).

وبعد ختمه للإجازة ألحق بها فقرة عنونها ب" تتمة" أرّخ فيها لوفاة شـــيخه وعمدته علي بن الأمين بســـنة 1236هـــ، ثم أضاف قائلا:" وقد أجاز جميع من أدرك حياته، وقد اقتديت أنا به في ذلك، فأجزت بكل ما أجازني به مشـايخي جميع من أدرك حياتي"، وهذا النوع من الإجازات؛ أي إجازة الفقيه والمحدث لجميع من أدرك حياته " إجازة عامة للعموم"، الهدف منها نشر السند الذي هو من خصائص الأمة المحمدية على أوسع نطاق. ثم عاد ابن العنابي مرة أخرى للتأكيد على إجازته للشـيخ محمد بيرم الرابع بقوله:" نعم أجزت الشـاب الأديب الفاضـل السـيد محمد بن شيخ الإسلام محمد بكل ما تجوز عني روايته".

وقد ذيل ابن العنابي الإجازة بختمه الذي يحمل عبارة:" منتظر لطف الودود عبده محمد بن محمود ســـنة 1232ه"، وهنا لا بد أن نشير إلى أن التاريخ الذي يحمله الختم ليس تاريخ الإجازة على الأرجح من عدة أوجه منها: أنّ ابن العنابي كان بالجزائر في السنة المذكورة، مُتوَليا لقضاء الحنفية، ومنها أنَّه أجاز بمصر لكل من إبراهيم السقا وعبد القادر الرافعي في سنة 1242هـــ، ولكنه أرّخ لإجازته للأول ب سنة 1242ه، بينما وضع ختمه المُشار إليه في إجازته للثاني، وهو يحمل نفس التاريخ أي 1232هـ وهذا التاريخ هو الذي يوجد دائما في ختمه الذي ختم به وثائق أخرى، بحيث كان يحمل ختما خاصا به بحكم توليه للقضاء. ونصّ الإجازة نفسه يؤكد أنّ تاريخ 1232هـ، ليس هو تاريخ الإجازة، ذلك أنه أخبر فيها عن وفاة والده التي كانت سنة 1234هـ، وعن وفاة شيخه ابن الأمين التي كانت ســـنة 1236هـــ (فوزية لزغم، 2009، ص250 ، 251). أمَّا تاريخ الإجازة الحقيقي فهو بين سنتي1236 و1245هـ؛ حيث حج الشيخ ابن العنابي سنة 1236هـ، واستقر بالأزهر لمدة تسع سنوات، ثم رجع إلى الجزائر وحلّ بتونس بين سنتي 1244-1245هـــ/ 1828-1829م (عبد الحميد بيك، 2011، ص188)، فهو إمَّا أن يكون قد أجاز لمحمد بيرم في المشرق، أو في تونس أثناء نزوله بها.

وخلال الأشهر التي أقامها ابن العنابي بتونس بين سنتي 1244 و1245هـ استجازه عدد من فقهاء تونس، ومنهم الشيخ مصطفى بيرم عم محمد بيرم الرابع الذي استدعاه بقصيدة تتكون من أربعة عشرة بيتا، هذه بعض أبياتها:

فكم طابت الخضراء نشرا وبهجة	*وكل إناء بالذي فيه رَاشح*
وبات بكم قطر الجزائر فاخرا	*وهل في الذي أبدى من الفخر قادح*
وأصبح فضل الغرب للشرق غايضا	*أما كل نجم للمغارب سائح*
...ولستَ الذي يراد بالمدح قدره	*فقدرك معلوم ومجدك واضح*
واطلب من علْياك نيل إجازة	*بفضلك لا أني لذلك صالح*

والذي لا شك فيه هو أنَّ ابن العنابي لبى طلب الشيخ مصطفى بيرم وأجازه، لحرصه على نشر سلسلة السند على أوســـع نطاق، حتى أنّه كان يجيز كل من أدرك حياته. وقد ظلت علاقة الصـــداقة قائمة بين ابن العنابي والشـيخ محمد بيرم الرابع حتى بعد انتقاله إلى مصـر، ويشـهد على ذلك الرسـائل المتبادلة بينهما، منها الرسـالة التي بعث بها إليه محمد بيرم أثناء إقامته بمصر بعد سـنة 1260هـــ، والتي تضـمنت قوله:" فقد كتبنا إليكم...من خضـراء تونس...تجديدا لعهود المودة القديمة، وجريا على طريقة الجد المســتقيمة، فإنا لم نزل بحبلها متمســكين، وبعراها متوثقين... كيف لا وهي خالصـة لوجه الله... ولولا أنَّ أشـغال الزمان تعوق عن المرغوب لنفذ إليكم من طرفنا مع كل

وارد عليكم مكتوب". والقارئ لهذه الرسالة يجد أن بيرم يجدد من خلالها عهود المودة بينهما، ويوصيه في آخرها خيرا بحامل الرسالة، والذي كان مسافرا للحرمين الشريفين بقوله:" فلا بأس بالتفات همتكم إليه بوصاية به تنفعه، أو مكتوب فيما يكسبه هيبته من تلقائكم يرفعه". (أبو القاسم سعد الله، 1977، ص127-129).

وهناك رسالة بعث بها ابن العنابي لمحمد بيرم الرابع، ضمنها أربعة أبيات حيا بها أسرة بيرم منها قوله:

بني بيرم زان البسيطة ذكرهم فما لهم في المشرقين نظير
هم أحرزوا فضل المعارف والتقى ولا سيما صدرا إليه أشير

رد محمد بيرم الرابع برسالة ضمنها هو الآخر أربعة أبيات منها قوله:

ولو قيل من حاز العلوم بأسرها إليه جميع العالمين تشير

5/علماء معسكر بتونس:

يبدو أنَّ علماء بايليك الغرب لم يكونوا يسافرون لتونس لطلب العلم إلا نادرا لبعدها عنهم، ولكنهم كانوا يعرجون بها أثناء رحلاتهم إلى المشرق، ويتواصلون مع علمائها، ولدينا نموذج واحد عن ذلك يتمثل في الشيخ محمد أبو راس الناصري المعسكري.

- نزول الشيخ محمد أبو راس الناصري بتونس وتواصله مع علماءها:

سافر الشيخ محمد أبو راس الناصري المعسكري إلى الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج مرتين، الأولى في عام 1205هـ/ 1790م، والثانية في عام 1226هـ/ 1812م، وكان يستغل رحلاته تلك للاتصال بالعلماء، ويتناقش معهم في مختلف المسائل الفقهية واللغوية، وقد ذكر الكثير من تلك الاتصالات في كتابه " فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، ومنها أنه نزل بمدينة تونس حينما كان متجها لبلاد الحرمين الشريفين في سنة 1205هـ/1790م، قبل أن يستأنف رحلته ويركب البحر إلى مصر. وخلال إقامته بحاضرة تونس التقى بالعديد من علمائها فاستفاد منهم واستفادوا منه، ولو أن أبي راس يركز فقط على إظهار تفوقه عليهم، حتى يحسبه القارئ يتفاخر بذلك، ولكن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار سنه عند تأليفه لكتاب "فتح الإله"، حيث ألفه في أواخر حياته وكان طاعنا في السن.

أقام الشيخ أبو راس بمدينة تونس في ضيافة " شيخها ومفتيها... الشيخ السيد محمد بن المحجوب ذي العلم الغزير"، وحدثت بينهما نقاشات في مسائل علمية مختلفة، منها ما ذكره أبو راس من أنه كان يوما جالسا معه فجاءه خصمان في حضانة، فأفتي الشيخ ابن المحجوب (ت 1243هـ / 1827م) برأي، وذكر له أبو راس رأي آخر، فأخذ برأي الشيخ أبو راس، وأصبح يشاوره، وذلك ما أشار إليه أبي راس بقوله:"... فرجع إلى قولي-لله دره ما أنصفه-وصار يشاورني في نوازل ترفع إليه، وبث شكري في تونس يفوق ما أستحقه". وذكر أبو راس أيضا أنه كان يوما معه في بساتينه، فأحضر كتاب فيه معلومات تاريخية عن بعض العلماء الأندلسيين فاستبعد أبي راس صحتها، وذكر تواريخ أخرى.

واجتمع أبو راس أيضا بشيخ الإسلام مفتي الحنفية بتونس الشيخ محمد بن حسين المعروف ببيرم الأول (1214هـ/1800م)، وقرأ عليه كتاب"مختصر الكنز" في الفقه الحنفي، كما أخذ عن ابنه قاضي الحنفية، (أبو راس الناصري، 1990، ص51، 52). كما حضر مجالس الشيخ صالح الكواش (1218هـ/ 1804م)، والذي وصفه ب:" شيخنا السيد صالح الكواش العلامة الفهامة"، ولما سمعه وقع في الأئمة كابن خلدون والبرزلي وابن ناجي أنكر ذلك منه، وتكلم "معه بطلف وسمت حسن" مبينا مكانتهم.

والتقى الشيخ أبو راس بالشيخ إبراهيم الرياحي (ت 1266هـ/ 1850م)، وهو أحد كبار علماء تونس في عصره، وقد أثنى عليه كثيرا في كتابه "فتح الاله" ووصفه أوصاف كثيرة من ذلك قوله:" وقد اجتمعت بعالم الدنيا على الإطلاق، وأديبها بالاتفاق... فريد العصر وتحفة الدهر، وفخر ذلك القطر...أخونا السيد إبراهيم الرياحي... وله في طريق القوم أمارات وعلامات". ولما اطلع على مؤلفات أبي راس" استحسنها غاية الاستحسان، وأنشد عليها قصائد حسان"، من ذلك قوله في قصيدة طويلة(أبو راس الناصري، 1990، ص109-112):

... وسلم الأمر تسليم الورى أبي راس وَدِنْ مثل ما دانوا فيزدان
حبر تفيض بعرفان جوانبه إن لم تقل فهو للتحقيق عرفان
أنفاسه بضروب العلم سائحة وكُلُّ عُضْوٍ له درسٌ وتبيان
... هذا الإمام أبو راس محمد من سارت بتبريزه في الخلق الركبان
هذا الذي أقلعت أنباؤه صمما وأبصرت نوره الملتاح عُميان

لزغم، فوزية. (2020). العلماء الجزائريون بتونس خلال عهد الدايات (1671-1830م)؛ ودورهم في مد جسور التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس. *مجلة الخلدونية*، 12(2)، ص 94-106

واجتمع أيضا بالشيخ أحمد بن عبد الله السوسي، المغربي الأصل، التونسي الدار، وقد خاطبه أبا راس سنة 1205هـ قائلا:" أحببت أن أكون من تلامذتك الرّاغبين في إجازتك، وإن لم أكن لذلك أهلا، فيكون ذلك منك لنا وبلا، كي تهب علي نفحاتكم، وسناء بركاتكم "، فأجازه في جميع ما يتعلق بالدّين ووصائله، وفروعه وأصوله ومسائله، وكتب له بخط يده (أبو راس الناصري، 1990، ص51، 52). ومما يستوقفنا أن الشيخ أبي راس لم يذكر أنه طلب الإجازة من كبار علماء تونس كما فعل مع علماء مصر، والشيخ أحمد السوسي هو العالم التونسي الوحيد الذي ذكر أنه طلب إجازته.

ويذكر أبو راس أنه اجتمع ذات مرة بالعلماء بجامع الزيتونة، وسألوه عن مسائل صعبة فأجابهم عنها دون تردد، فأخبروا بذلك حمودة باشا باي تونس (1782-1814م) فدعاه إليه وأكرمه:" واجتمعت مع العلماء بجامعها الأعظم، فتذاكرنا وتناظرنا، وترافعنا وتشاجرنا وتقابضنا في جميع الفنون الدقيقة، والمسائل الخفية، وقد أظهرني الله عليهم في ذلك كله، ثم سألوني عن أشياء صعب فقهية، فأجبتهم عليها بما عندي من الأنقال الرائعة عليها من غير توقف، ولا تلعثم فأخبروا بذلك الاعتراض والجواب الذي حارت فيه أهل الصواب ذا المجد... السيد حمودة باشا فبعث إليَّ بسرعة، فذهبت إليه من وهلة بعد المفاوضة والمباحثة الشديدة، ولما رآني فرح بي، وأجلسني وأكرمني... ثم سألني عن أشياء عديدة...فاستحسن ذلك كله -رحمه الله وقدس ثراه- ثم إن بعض العلماء لما سمعوا بإكرامه لي اعتراهم الحسد والكمد والمكر... " (أبو راس الناصري، 1990، ص115).

خاتمة:

من خلال ما سبق يتبين أن أهم الدوافع التي دفعت العلماء الجزائريين لزيارة تونس تتمثل في عاملين رئيسيين هما الرّحلة إلى المشرق الإسلامي، حيث كانت القوافل وركائب الحج تمر بالضرورة بتونس، ولهذا كان الفقهاء يستغلون الفرصة ويتصلون بعلمائها، وقد يتخلف بعضهم بها لعدة أشهر بعد عودة الركب من الحج ليأخذ عن علمائها وليتواصل معهم. وتعد الرحلة لطلب العلم أيضا عاملا أساسيا لزيارة العلماء الجزائريين لتونس، سيما علماء الشرق الجزائري، ومدينة الجزائر، أما علماء الغرب الجزائري فلم يكونوا يسافرون لتونس لطلب العلم في أغلب الأحيان لبعدها عنهم، ولكنهم كانوا كغيرهم من العلماء الجزائريين ينزلون بها اثناء ترددهم على بلاد المشرق.

ومن خلال ما سبق ذكره يتبين أيضا أن بعض بايات تونس تلقوا بعض العلماء الجزائريين بالإكرام والتقدير، ولكنهم لم يكونوا يعينون العلماء الجزائريين في الوظائف الدينية العليا، وحتى كبار العلماء منهم، ويكف أن نشير إلى إقامة الشيخ أحمد بن عمار بها لحوالي تسع سنوات، ومع ذلك لم يعين على أغلب الظن بوظيف ديني رفيع، وهذا أحد الأسباب الرئيسية لعدم استقرار العلماء الجزائريين بتونس بشكل نهائي إلا في حالات نادرة جدا.

لقد سمح تواجد العلماء الجزائريين في تونس بالتواصل مع أقرانهم بها، فأفادوا واستفادوا، حيث دَرَسوا ودرَّسوا بها، وتباحثوا مع علمائها في مسائل الفقه والعقيدة، واللغة وعلم الكلام وغيرها من العلوم، وأجازوا واستجازوا، وتبادلوا معهم التقاريظ، كما كانوا يقتنون الكتب من تونس، ونقلوا إليها مؤلفاتهم أيضا، ولا شك أن كل منهم أثر في الآخر.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أبو القاسم سعد الله. (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، (ط1)، بيروت.

2- أبو القاسم سعد الله. (1977)، المفتي الجزائري ابن العنابي: رائد التجديد الإسلامي (1775-1850). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

3- أبو القاسم محمد الحفناوي. (2012)، تعريف الخلف برجال السلف، تح: خير الدين شترة. دار كردادة للنشر والتوزيع، (ط1)، بوسعادة.

4- أبو راس محمد الناصري. (1990)، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح: محمد بن عبد الكريم. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

5- أحمد البوني، ثبت البوني، مخطوط بمكتبة طولقة بولاية بسكرة.

6- أحمد عبد السلام. (1993). المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19م، تر: أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي. المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، (ط1)، تونس.
7- بيك عبد الحميد. (2011)، أعيان من المشارقة والمغاربة، تعليق: أبو القاسم سعد الله. عالم المعرفة، الجزائر.
8- الحسين الورثيلاني. (2007)، الرحلة الوثيلانية (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، مكتبة الثقافة الدينية، (ط1)، القاهرة.
9- حسين خوجة. (1975). ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تح: الطاهر المعموري. الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس.
10- حمودة بن عبد العزيز. (1970)، الكتاب الباشي، تح: محمد ماضور، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس.
11- حسن حسني عبد الوهاب. (1990). كتاب العمر. دار الغرب الإسلامي، (ط1). بيروت.
12- عبد الحي الكتاني. (1982). فهرس الفهارس والأثبات والمعاجم والمشيخات والمسلسلات، دار الغرب الإسلامي، (ط2). بيروت.
13- فوزية لزغم. (2020)، بايات الأسرة الحسينية بتونس؛ تكوينهم العلمي وأثرهم في الحركة العلمية (1117-1229هـ/ 1705-1814م)، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مجلد3، ع2، سبتمبر 2020.
14- فوزية لزغم. (2009)، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، دار سنجاق الدين، الجزائر.
15- محمد محفوظ. (1994)، معجم المؤلفين التونسيين. دار الغرب الإسلامي، (ط2)، بيروت.
16- Devoulx Albert. (1866), Les Edifices Religieux de l'ancien Alger, Revue Africaine. N°: 10.